مدى مساهمة مشروع برهان غليون في نهضة الثورات العربية

أ. أمينة لزرق

مقدمة

شغلت الساحة الفكرية العربية في النصف الأخير من القرن العشرين، الأوضاع والمتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فانقسمت اهتمامات وكتابات المفكرين والفلاسفة المعاصرين إلى قسمين: الأول إبستمولوجي، والثاني إصلاحي، يُعنى الأول بنقد العقل العربي وآليات تفكيره ونموذج سلوكياته، سواء على المستوى الخاص أو العام. وعُني الثاني بتشخيص «الواقع» العربي من سياسات قمعية وسلطات ديكتاتورية، إلى مجتمعات طائفية قبلية متشددة ومتنازعة، إلى ثقافة تراثية مازالت تعتقد نظريا على المبادئ والمعتقدات الدينية القديمة أنها الخلاص الذي يساعدهم على التحرر من الأشكال القهرية التي يعيشون في كنفها في العصر المعاصر.

فالمفكر والمثقف الحقيقي باعتباره مواطن ومنتمي إلى حضارة، يجب أن لا يتخلى في اللحظات الحرجة والحاسمة عن مجتمعه، فأي علم أو فلسفة ليسا لهما أي معنى إن لم يندمجا في العلاقة و إشكاليات المجتمعات الحاضنة لهما، فيجب أن يكون المثقف مكلّفا ذاتيا بتشخيص المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الذي يكون فيها أو حتى خارجا عنها، فها هو المفكر: برهان غليون يقطن في فرنسا مع دراساته وأبحاثه التي تجس نبض الحالة العربية الراهنة، سواء أقبل الثورة أو بعدها، حيث نجد أن مؤلفاته كلها تدور في فلك الأسئلة التي تشغل المجتمعات العربية، فقدم بذلك مشروعه الفكري، الذي سعى من خلال إيقاظ العقول العربية من غفلتها وسباتها الماضوي، وفتح أمامه الأفاق التي تؤهلها للخوض في ديناميكية العصر المعاصر، بما هو حافل من قيم كالحرية والتنوع والمساواة والتطور والرخاء المادي والمعنوي... إلخ.

فما هو محتوى المشروع الغليوني؟ وكيف ساهم المشروع في خضم الأحداث الثورية العربية المعاصرة؟

١. مشروع برهان غليون

يدرج مشروع برهان غليون الفكري ضمن الإصلاح العربي، إصلاح الواقع السياسي والألية التي تتبعها السياسة العربية مع البنى المجتمعية، إصلاح المنظومة الفكرية والثقافية للعقلية العربية، ولقد ورد في دراسة قدمها الأستاذ: السيد ولد أباه، تقسيم المشروع الغليوني إلى ثلاثة محاور رئيسية، أولها الفكر التحديثي العربي، وثانيها علاقة الدين بالدولة، وأخر محور علاقة الأمة بالدولة[١]. إلا أنه يمكن اختزال المشروع ككل في محورين أو نقطتين في بالغ الأهمية، حيث أن كل مؤلفات برهان غليون لا تخرج عنهما، وهما: الحداثة أو التحديث العربي، والثانية الدولة الدينية والدولة المدنية، ذلك أن دور الأمة يكمن في تحديد كل واحدة منها، فالأمة ولأسباب معينة وتبعا لاقتناعات أو لمواريث فكرية، ستحدد طبيعة كل من الدولة التي ستكون عليها، ونفس الشيء بالنسبة للتحديث والعصرنة، فالشعب كفاعلين وكأمة واحدة داخل الدولة والقطر الواحد، سيختارون من الحداثة ما يليق بهم وبعقلياتهم.

ركز برهان غليون في قراءاته على السياق الاجتماعي - الثقافي المعاصر، وانصرف عن السياقات الستاتيكية، التي تعمل على إرجاع مجريات وأحداث التاريخ إلى حقبة معينة ومحددة، والتي تمثلت في الأغلب بالموروث الديني وتفسيرات السلف. مسعى برهان غليون هو «رصد الأزمة العربية»، بما هو معاش بالواقع المعاصر، وبما هو محفوف من مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية...إلخ، وليس من منطلق ما ينبغي أن يكون أو مما كان، نعاود إحياؤه ونلبسه لبوس العصرنة.

سوف أركز على نقطتين مهمتين في مشروع برهان غليون، لأنها ستخدمنا في استخلاص المساهمة التي قدمها برهان غليون في الوقت الراهن، وأعني بذلك الثورات العربية القائمة الآن، بدءا من تونس ومرورا بليبيا ومصر واليمن وسوريا.

(١) السيد ولد أباه، أعلام الفكر العربي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٠، ص ٢٥ ص ٢٩.

أ- الحداثة في المجتمعات العربية:

الحداثة بمفهومها العام هي حركة نهوض وتطوير وإبداع، هدفها تغيير أنماط التفكير والعمل والسلوك، بمعنى أنها حركة تنويرية عقلانية بالأساس، جاءت كرد فعل لما عاشه الإنسان في العصور الوسطى، أي أنها وجدت لغاية تحطيم أصنام الفكر التراثي الديني، الذي امتاز بالإنغلاقية والتفسيرات المطلقية العليا. ولما كانت الحداثة في المجتمعات الغربية قد وجدت الرد الإيجابي لها، وما نشهده اليوم من ثقافة متنورة وعقلانية خرقت كل الحدود بالتطوير التكنولوجي والصناعي، وكذا في سلوكياتهم، إذ نجد أن مفهوم الإنسان أصبح ذو بعد أخلاقي كوني، مع ذاتية متفردة وعلائقية في ذات الوقت ماهو إلا دليل على إيجابيات الحداثة. إلا أن الرد لم يكن واحد في جميع أقطار العالم، حيث أن المجتمعات العربية مازالت وفية وفاءً مطلقا للتراث - ولا أعني التراث هنا الدين- فالمجتمع العربي عاش الحداثة بوجهها السلبي، عاشها في حالة التهجين، إذ الحداثة في الوطن العربي عرفت عن طريق الاستعمار، فقد دخلت من الخارج، لم تكن وليدة عقولنا وإدراكاتنا، ثم عرفناها بعد ذلك من خلال الدولة البيروقراطية والنخب المنفصلة عن الجماهير والمتغربة، فجاءت في إطار من العنف والإكراه، وليس في سياق الحرية والديمقراطية والعصرنة[1]. نفهم من هذا أن الحداثة في الوطن العربي لم يكن بسبب الدين أي الدين بما يحمله من مبادئ والتزامات لم يمنع العقول العربية من تبنيها، كما كانت الحال في البلدان الغربية إذ الكنيسة سلطت القيود لتمنع تحرر الفرد من سلطنها وجبروتها.

وتمثل المأزق الحداثي العربي بأنه لم يعي مقومات الحداثة، فهو لم يستوعب ولم يدرك ماهيتها الحقة، فلقد أخذ الشكل وترك المضمون، فالحداثة ليست بإتيان مصنع حديث، الحداثة هي علاقات العمل، هي ليست رأس المال، هي رأس المال بما يعني الإنتاج والتفاعل مع الإنتاج بهدف التنمية الاقتصادية، الحداثة ليست بعدد ونوعية الأجهزة التي تستوردها الدولة، بل هي بالتسخير الإيجابي لهذه الأجهزة، تسخيرها في تطوير وإخصاب الفكر العربي بالأراء المتعددة والنقاشات والمناظرات التي تسمح للمجتمعات أن تطور ثقافة جديدة، حداثتنا باختصار خلقت من الفقر والقهر والجوع والبطالة... إلخ، أكثر مما خلقت من الحرية والمساواة

(١) برهان غليون، أسطورة الحداثة العربية، الحوار المتمدن، العدد ١٥٩٤، ٢٧. ٠٦. ٢٠٠٦، الساعة: ٠٩:٤٦، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=68375.

والعدالة والتنمية، فتربتها لم تكن مهيأة، ومما زاد الطين بلة أن المشرفين على الأرض كانوا على تغافل تام عنها لأهداف تخصهم وحدهم. لقد فشل العربي في الصراع التاريخي بين القوى الداخلية والخارجية لامتلاك الموارد المادية وغير المادية، لكن الاعتقاد الذي ساد عندنا هو أننا توقعنا أن تأتينا الحداثة في صحن من ذهب مزين بحبات اللؤلؤ، لم نكن على دراية أن الحرية لا تأتيك لو لم تقتل نفسك من أجلها، لم نع بأن التنمية تأتي بتطوير ذواتنا بالعلم، إلا اننا يمكن اعتبار هذه الثورات التي نشهدها اليوم مرحلة تمهيدية للحداثة، لا يمكن أن نغض النظر عن هذه القفزة التي أقدم عليها مجموع الشباب والعمال والمثقفين... إلخ، أنها وجه من أوجه الحداثة ذلك «لأنه أولا تمرد على الأنظمة الاستبدادية، تلك التي زرعت بذور الحداثة الهجينة، إن بروز الشعب ومطالبته بحقوقه كإنسان حر معاصر هو في حد ذاته فاعل سياسي، بل محور الحياة السياسية والقرارات العمومية التي تمثل جوهر الحداثة السياسية والاجتماعية»[1].

ب. الدولة الدينية والدولة المدنية:

لقد حصل إلتباس كبير في الثقافة العربية بين العلمانية والدين، لأسباب تتعلق بالسياق التاريخي والثقافي والسياسي معا، فصارت العلمانية تعني عند عامة الناس رفض الدين والعداء له وللرجال المتدينين، وقد حال هذا الالتباس دون التطور الطبيعي للفكر وللقيم في الحقل السياسي العربي، فالعلمانية بمعناها الجوهري مرتبطة بنظرية الدولة الحديثة، أي دولة المواطنين أو المشاركة السياسية والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات، إذ أن مفهوم الوطنية جامع لكل الأفراد، سواء أكانوا متعددوا الأديان أو المذاهب- وهذا من حقهم- وهم يستوعبون هذا التنوع لأنهم تحكمهم قوانين تجعل كل واحد منهم يحترم الآخر من مبدأ المواطنية والمدنية.

لكن إذا ما بقينا على مستوى العلاقة الدينية والدولة الدينية التي تسير اليوم وفق مبدأ: الناس على دين ملوكها، بمعنى أن الملك أو الحاكم يفرض مذهبه ودينه على الجميع ويسمح بتغلغل هذا الدين في الأمور الاجتماعية والشخصية، مما ينتج عدم الاستقرار ويحول دون تحقيق شروط الوحدة والسلام والحرية والعدالة... إلخ. فالدولة المدنية تحوي ذلك التنوع، هذا الذي مازال لحد الساعة مصدر حروب أهلية في المجتمعات العربية، حيث أن الطوائف

(١) برهان غليون، الثورة التونسية أو دخول العرب في الحداثة السياسية، مجلة الحوار المتمدن، العدد ٣٢٥٥، يوم: ٢٠١١. ٠١. ٢٣. الساعة: ٢٠:٥٦، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=242874.

والعصبية تسيطر على نظام الحكم القائم، والشعب في تجزؤ بين الانتماء والتمرد، بين الحرية والقيد، يتلاعب به ضمن استراتيجية المصلاحتية النظامية، فالديمقراطية لا تكون لها قائمة ضمن الصراعات الفئوية، ضمن رأسمالية وشغيلة بسطاء، «الديمقراطية لا تكون ضمن توريث النظام أو حكر السلطة لفئة معينة، الطائفية عرقلت الديمقراطية إذ أنها منعت التداول السلمي للسلطة، حيث أصبح جهاز الدولة مطبوع بالإمبريالية الفكرية، ذات التعدد المتكرر والمحتكر، فنقص الكفاءة المهنية في الجهاز الحكومي وانعدام الانتخاب الحر سيؤدي لا محالة بالوطن العربي بالموت عاجلا أم آجلا»[1].

ويمكن إرجاع الوضع العربي الحالي لثورة ضد النزعات السلطوية ذات الحكم الشمولي الكلياني، التي لم تترك مجالًا للحرية في التعبير وحرية الانتخاب، فالشعب العربي في حالة عبثية مطلقة، عبثية الوجود، وانعدامية الذات، خلفت هذه حالة حيوانية «ذئب لأخيه الإنسان»، وما العقد الذي أبرم من طرف مجموع الفئات الشعبية من طلاب وشباب وبطالين وجمعيات...إلخ، إلا دعوة صريحة لديمقراطية، ديمقراطية تحدد إطار حماية الأفراد وحقوقهم من خلال منظومة قانونية، لا تقتصر على التشريع فحسب، ولكنها تضمن تطبيقها وتحمي حقوق الأفراد في الدفاع والمقاضاة وفي العدالة وفي الأمن العام. وتنبع الديمقراطية من حماية واحترام الحريات الدينية جميعا، فالعلمانية في الديمقراطية في المجتمعات العربية يجب أن تكون غير معادية للدين الذي يشكل هوية أفراده، ولو أن برهان غليون لا يرى أن العلمانية تحارب الدين، بل ما تعترضه هو سيطرة رجال الدين أو من يدعي تلك السلطة الإلهية، التي لا يمكن فهم منطقها ولا يمكن محاكمتها لا عقليا ولا منطقيا، وأظن أن الحالات متعددة في بلداننا كالعراق مثلا، فهاهي أمريكا تخرج ومازال العراقيون يتخبطون في دماء بعضهم البعض، فهاهي بغداد الشيعية والسنية وهاهي الأنبار سنية، وبأربيل الكردية، وكأنها مجموعة من الدول ذات النظام المتعدد، وهذا يدل أن النظام الطائفي لا يستطيع أن يحتوي التنوع على نحو متكامل، وهذا ما يؤثر سلبا على علاقات الأفراد وحتى على علاقات الدولة بالدول الأخرى، فالديمقراطية تجعل من الدولة المتبنية لها ذات أفق رحب، من حيث الاقتصاد أو السياسة أو الثقافة، فالدولة المدنية في ظل الديمقراطية تجد مكانها لأن هذه الأخيرة تكون: «السلطة من

(١) برهان غليون، نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٢٢.

صنع الشعب والتي تكرس لتحقيق الوحدة والتضامن عن طريق التصويت المنظم والدائم على صلاحية السلطة، مما يضمن للجماعة حقها في مراجعة الحاكم ومحاسبته وتبديله تلبية لإرادتها...وتتأخر المجتمعات إذا اعتمد نظامها على الطوائف»[١].

٢. الثورة كرد فعل... وكفعل

إن قيام العرب بثورة كهذه تعد رمزا تاريخيا وعالميا، فالفعل مثّل قوة وفاعلية عربية كبرى، وقد توحدت - في الأغلب - رؤى المفكرين والمحللين السياسيين والفلاسفة العرب حول أسباب وعلل قيام الثورات العربية، التي تنوعت بتنوع ظروفها وطبيعتها، فنجد في القاموس السياسي العربي المعاصر عدة مفردات تشير للثورات العربية من مثل: الربيع العربي، ثورات الحرية... إلخ، الأكيد أنها ثورة حداثية أو ثورة نحو الحداثة، نحو العصرنة، نحو إعادة تشكيل الإنسان بالمعنى الحقيقي له وما ينبغي أن يكون عليه.

ولقد صرف المفكرين كتاباتهم حول العقل العربي والعلوم المعرفية الأخرى، ليندمجوا في كتابات موحدة حول تشخيص الحالة والثورة العربية، متحررين بذلك أسبابها وأهدافها الحقة، ومن بين الأسباب نلخص أبرزها في النقاط التالية:

١. جاءت الثورات العربية كرد فعل على نصف قرن من من الحكومات الديكتاتورية والفاشية التي عرفها المجتمع العربي، هدفها كان خلق قوة مستقلة للشعب، وتوحيد الشعارات والفكر إلى فاعل رئيسي في الحياة العمومية والسياسية والاجتماعية، وهذا هو جوهر الحداثة، وخروج ممارسة السلطة في أيدي نخبة مغلقة، أرستقراطية، عسكرية، أوليغارشية، ومخابراتية تتدخل دوما لردع الشعب وتحييده[٢]. الثورة قامت نتيجة واقع مزرٍ، أنتهك الإنسان العربي في صميم وجوده حتى أُفرغ من ماهيته، أصبح يعتبر نفسه إنسان من نوع أخر لا يشبه الإنسان الأوربي في شيء، فالاستلاب بكل معانيه

(١) برهان غليون، بيان من أجل الديمقراطية، دار بوشان للنشر، الجزائر، ط٤، ١٩٩٠، ص ٢٩.

(٢) برهان غليون، كلنا سوريا، http://www.inewsarabia.com/485/%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1-%D9%85%D8%B7%D9%88%D9%84-%D9%85%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%B1-%D8%A8%D9%84%D8%A7%D8%B1%D9%87%D8%A7%D9%86-%D8%BA%D9%84%D9%8A%D9%88%D9%86.htm

من طرف الأنظمة القمعية، أدت بالفئة الشعبية بالانفجار، انفجار الحرية والكرامة والسيادة، التي سيكون ثمنها باهضا، وسيكون العربي هو من سيدفع هذا الثمن ولو على حساب حياته، ولقد اختلفت وتنوعت الدوافع في البلدان العربية كلٌ حسب ما ينقصها، «ففي تونس قامت الثورة من أجل الكرامة، وانتقلت إلى مصر دفاعا عن الحرية، ثم ليبيا دفاعا عن وجود الشعب كله الذي ظل يرزخ تحت العبودية ما يزيد عن أربعة قرون»[١]. يرجع سبب الثورة كل من : حسن حنفي وعلي أومليل ومروان بشارة، وكذلك برهان غليون، تمسك القادة بالمناصب واحتكارهم للسلطة الذي أدى إلى ركود فكري وسياسي بين النخب نفسهم، مما شل الناشطين الشباب على التأثير في أجندة الأحزاب المعارضة، وقد أدت الايديولوجيات الشمولية والبرامج البائدة لهذه الأحزاب، إلى ثورة الكثير من الشباب اليوم على النظام القديم والعقلية القديمة، اللذين حالا دون ضخ دماء جديدة في صفوف المعارضة[٢] ولطالما وجه غليون النقد اللاذع لهذه الأنظمة بكل أطيافها وأنواعها، سواء أكانت ذات حكم طائفي أو حكم نخبوي أو حكم رأسمالي فكلهم لا يخرجون من منطق التعسف والألية الاحتكارية للشعب، وقتل الوعي الإبداعي وطمس حقوقهم.

٢. المطالبة بالعدالة الاجتماعية والوطنية: فالفقر والبطالة قد شكلت هوة كبيرة بين أفراد الشعب الواحد، وذلك راجع إلى أسباب عدة منها: عدم وضع حد أدنى على الأجور، ونهب الأموال العامة وتسخيرها في خدمة الوكلاء العالميين والدول الغربية المسيطرة على الاقتصاد المحلي، وسيطرة رجال الأعمال على السلطة[٣]. فالاقتصاد العربي مازال تابعا ومسيطر عليه من قبل السلطة الحاكمة، وهذا ما أدى إلى تكثيف المجهودات الفردية والعمال الأحرار والمقاولتين من التطور بالاقتصاد المحلي، إذ أن القوانين التي تحكم الاقتصاد مجانبة لقوانين السياسية الاحتكارية، فما تقره الأولى تسانده الثانية، فالمصالح أولى من الرضا الشعبوي على جهاز الحكم، سواء أكانت هذه المصالح بين

(١) مجموعة من المؤلفين، إلى أين يذهب العرب؟ مؤسسة الفكر العربي، العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٢، ص ٢١٤.

(٢) مروان بشارة، العربي الخفي وعود الثورات العربية ومخاطرها، ترجمة: موسى الحالول، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الدوحة، بيروت ط١، ٢٠١٣، ص٢٠١.

(٣) مجموعة من المؤلفين، إلى أين يذهب العرب؟، ص ٢١٤.

الأطراف المشاركة في الحكم أو بين الدول الخارجية، فالأمر لا يخلو من سياسات تكتيكية تهدف إلى الظلم اللامباشر، بمعنى تجعل الفرد دائما في حاجة وتبعية لاقتصاد الدولة ولحاجاتها، فهي بهذا تضمن حياد الفرد عن التساؤل حول المشكلات الحقيقية للبلاد وللسياسية القهرية الملغومة، ومن ناحية ثانية تترك للفرد انطباع أن اقتصادنا في تدهور وذلك بعدم إعطاء القيمة الفعلية للمداخيل فلا يثور على أشكال التفاوت فالفرد في الوطن العربي جاهل بكل معنى للكلمة. و إذا كانت الثورة الفرنسية قد اتخذت لها شعار: الحرية والمساواة والرخاء، فإن برهان غليون يدعو إلى أن يكون شعار الثورة العربية: الخبز والكرامة والحرية، فالثورة الفرنسية لا تختلف عن ثورتنا نحن، ذلك أنها تدفع إلى ولادة نموذج لنظام مجتمعي إقليمي بشكل جديد، بشكل ما سماه برهان غليون «العهد الوطني العربي الجديد».

ويقصد بعهد الخبز في هذا البرنامج المؤسس لوطنية عربية وأمة جدبدة أنه لا يجوز بعد اليوم أن يقبل العربي بأن يكون هناك في البلاد العربية من يجوع، وأن تأمين الحد الأدنى للحياة التزام جماعي أخلاقي، وليست سياسة حكومية فحسب، وهو ما يساوي في العهد الجمهوري القديم شعار الإخاء والتكافل والتضامن كحق طبيعي للأضعف وواجب على الأقدر، وما لا يستقيم من دونه بناء اجتماعي حي وقابل للحياة. ويقصد بعهد الكرامة، احترام كل فرد بصرف النظر عن أصله ومهنته ووضعه الاجتماعي، أنه واجب وطني وأنه لا يجوز أن يبقى في بلاده من يقبل الذل ويتعرض للإذلال سواء أكانت هذه الجماعة ضد الأخرى أو بين العلاقات الفردية، أو الانتقاص من حقوقها أو ممارسة أي أشكال الإطاحة بالكرامة الإنسانية تجاه أحد. إن أساس هذا الاحترام المتبادل هو مساوئ الجميع من وراء الاختلافات في اللون والجنس والطبقة الاجتماعية والدين والثقافة والفكر والعقيدة السياسية.[1]

٣. الحرية وهو الاعتراف بالحق المقدس لأي فرد في التصرف بشؤونه وتحكيم ضميره والتعبير عن نفسه وفكره والتواصل مع أقرانه والمشاركة المتساوية مع غيره في النشاطات العامة والسياسية.

(١) برهان غليون، المواطنة: العربي الجديد، الحوار المتمدن، العدد ٣٣٠٢، اليوم: ٠٣, ١١. ٢٠١١، الساعة: ٠١:٥٣، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٢٥٠٠٥٧.

وبهذا تشكل هذه الثورات مرجلا عظيما لإعادة صهر الشعوب العربية وإعادة تشكيلها على النحو التي هدفت إليه من حرية ومواطنية وديمقراطية وقيم أخلاقية واقتصاد متطور... الخ. التي شوهها النظام والاستقالة المعنوية والفساد وحولها إلى أشباه أمم وأشباه دول، وإعادة صوغها في قالب جديد إنساني واجتماعي بالقيم والمبادئ التي انتزعت منها.

تعد هذه ردود أفعال، رد فعل لما كان منافيا لمنطق الحياة ومعاكسا لروح العصر فالثورة كانت عللها داخلية أكثر منها خارجية، وإن كانت هذه الأخيرة لها نصيب في دفع الثورات وتأزم الوضع العربي، وتمثلت في تدخل القوى الغربية من مثل أمريكا وإسرائيل والروس... إلخ، بناءً على مصالحها والحفاظ على ثرواتها المستثمرة في البلاد العربية والتي تشكل قيامها وازدهارها، إلا أن تدخلها كان دائما بريئا، أما عن طريق الأمن القومي أو عن طريق المؤسسات العالمية لحفظ حقوق الإنسان وغيرها، أو كما عبر بوش على حسب تصريح وزيرة خارجيته: كوندوليزا رايس: «كان تدخل أمريكا تحت لواء نشر القيم العالمية والمتمثلة في قيم الديمقراطية أولها الحرية»، وقد ساعدت هذه الأجندة بزوال الطغاة القمعيين في تونس ومصر وغيرهما خلال الربيع العربي[1].

فهي لن تسمح للأحداث الثورية أن تجرى على النحو السليم وعلى خطى أهدافها، وفقا لإرادات أبنائها، فوجوب التدخل الضمني أو المعلن لا يخلو من غاية توجيه الوقائع على نحو يحول دون وصول هذه الشعوب إلى دول حرة خالصة ومستقلة، وعلى نحو يضمن مصالح القوة المهيمنة ومستقبل دولة إسرائيل. ولقد ذهب الكثير من المفكرين من أمثال فهمي جدعان وجورج قرم إلى أن تدخلات الغرب لا يخلو من «مؤامرة أمريكية- أوروبية»[2]. إلا أن برهان غليون لا يتفق على مفهوم المؤامرة ولمن في نفس الوقت لا ينفى التدخل الغربي، على أساس أن التسلط في الوطن العربي ماهو إلا نتيجة إلتقاء المصالح بين النخب الحاكمة التي تريد تثبيث سيطرتها وحكمها المستبد وسيطرتها على موارد هذه البلدان من دون مراقبة ولا محاسبة من ناحية، ومن ناحية أخرى بين القوى الغربية التي تريد أن تحافظ في الشرق الأدنى على نفوذ قوي، دفاعا عن مصالحها في ضمان أمن واستقرار إسرائيل، وتأمين التدفق الطبيعي وبالشروط المناسبة للنفط، ولقطع الطريق على عودة أي حركة شعبية جماهرية على الطريقة الناصرية يمكن أن تهدد عن طريق تغيير الوقائع الجيوسياسية أو اتخاد مواقف معادية للغرب مصالح

(١) مروان بشارة، العربي الخفي، ص ١٤٨ ص١٥٤.

(٢) مجموعة من المؤلفين، إلى أين يذهب العرب؟، ص ٢٣٨.

الدول الاطلسية[١]. باختصار يريد الغرب من دعمهم للأنظمة السلطوية الإبقاء على نظام نيوكولونيالي (استعماري جديد)، يضمن إسرائيل ووصول النفط لأكبر المستهلكين وتجنب سير العرب نحو الوحدة والتجمع، إذن وجود سياسة لا مؤامرة بين المصالح المحلية والدول الصناعية، فللحفاظ على المصالح في الشرق الأوسط ينبغي أن يكون هناك حلفاء موثوق بهم يملكون وسائل السيطرة على الشعب، وهم بدورهم يوفرون لها كل الوسائل الأمنية والعسكرية التي تمكن الأنظمة العربية من التحكم والهيمنة التامة على مجتمعاتهم.

لكن يمكن أن يعترضنا تساؤل: جهود الغرب في التدخل الأمني الذي قُدم مثلا إلى العراق وليبيا، ماذا يعتبر؟ هل هو سلوك إيجابي مبتغاه فض النزاع وإعادة الاعتبار للشعب الذي سفكت دماؤه وانتهكت حقوقه من قبل الأنظمة السلطوية؟

إن هذا الدخول لا يعبر ضرورة على فعل حسن النية، بل أكثر ما يهدف إليه هو إعادة بناء نفس الأنظمة القديمة ولكن على قواعد أكثر مرونة بحيث تستطيع أن تستوعب وتحتوي الثورات والتناقضات المتفجرة التي نتجت عن مرحلة القهر الطويلة السابقة، وتخفف بالتالي على حسب هدف الغربيين من الرغبة في الانتقام التي تحرك بعض ناشطي العالم العربي اتجاه الدول الغربية عن طريق الإرهاب. أي أن الدوافع الأمنية هي التي تقودهم إلى إثارة مسألة الديمقراطية، «ولكن مهما يكن الأمر أنا لا أعتقد أن ما يريده الغربيون في العالم العربي هو ديمقراطية فعلية، وإنما إدخال شيء من الليبرالية على الأنظمة، أي انفتاحها وتوسيع قاعدتها الاجتماعية مع مزيد من التعددية وحرية التعبير، للتخفيف من ضغط السكان الذين بلغوا حافة الانفجار. أبدا لا يهدفون إلى إعادة السلطة للشعب، فهم مازالوا بعيدا عن الاعتراف بالسيادة الشعبية لهذه الدول، ذلك في اعتقاد منهم أن مثل هذا الاعتراف يستدعي القبول بأنظمة ديمقراطية حقيقة وتمثيلية في العالم العربي يسير في اتجاه معاكس تماما لمصالحهم في المنطقة[٢]. إذن تختلف النوايا والأهداف الغربية في الثورات العربية، ولكنها لا تخرج من أطار الهيمنة والسيطرة على الموارد الطبيعية الصناعية، وجعل الأنظمة العربية أداة في يدها من أجل ضمان مصالحها وحسن سيرها مع أبناء المحكومين.

---

(١) برهان غليون، القضايا العربية، الحوار المتمدن، العدد ٨٦٦، اليوم: ٠٤,١٦. ٢٠٠٤، الساعة: ٠٥:٥٥، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=%2019447.

(٢) برهان غليون، القضايا العربية، المصدر السابق.

إذا كانت الثورة كانت كرد فعل لقوى كانت أقوى من الشعب طيلة قرون عدة، فهل هذا يعني أن الشعب قام بثورة دون أدنى فعل يعبر عن وعي وتثقاف سياسي- اجتماعي؟؟

لقد عبرت الثورة عن وعي جريء وعقل مخطط، فلقد قامت على يد شباب مثقفين وعمال ونقابات وجمعيات... إلخ، «فالسياسة ليست تسير بمقتضى الإرادة حصرا ولو أنها من مقوماتها، وإنما تنتظمها قوانين وعلاقات أخرى كالوعي والرؤية الجامعة والمشروع السياسي والتنظيم الاجتماعي للقوى...الخ[١].

إضافة أن هذا الوعي امتزج بنوع من التحديث بحيث أن كل الطوائف والفئات تخلو عن صراعاتهم الكلاسيكية وخرجوا يهتفون بصوت واحد وإرادة مشتركة: «الشعب يريد». لقد وضع القوميون واليساريون والإسلاميون خلافاتهم جانبا حين قادهم إئتلاف متخصص من النشطاء الشباب والطلاب والنقابات والعمال والفنانين والمتدينين... الذين تأقلموا مع المستجدات الناشئة، ولقد كانت المطالب في الحرية والأمن الاقتصادي والعدالة الاجتماعية[٢]. وهذا يدل على إدراك للواقع الذي كانوا في ظله يعيشون، ولقد انعكس هذا على شكل ثورات وكفاح متواصل ضد الهيمنة السلطوية، وخرج ينادي ويسعى إلى الديمقراطية التي كانت مخبأة في صندوق المعجزات والمستحيلات.

٣. الثورات العربية كربيع...؟!

ذهب الكثير من المفكرين إلى اعتبار الثورات العربية إنها تمثل أوج التفتح العربي بما انه كان منغلقا في ظلمات السلطات وعواصف الهيمنة المخفية، وقد اعتبرت هذه الثورة النور الذي سوف يهدي الشعب إلى السياسة الرشيدة والواقع الذين طالموا حلموا به، إلا أن إعطاء كلمة الربيع باعتبار أن الربيع يحمل من البهاء والطبيعة النقية والحالة المتوازنة، وإسقاطه على الثورة أسراعا في الحكم قبل نهاية هذه الثورات، قبل أن نعرف إذا ما استطاعت فعلا التوصل إلى قمة الحريات الأساسية وإلى بناء برج الديمقراطية التي تحتوي على التنوع الديني والتعدد الفكري وتحمل بين ثناياها العدالة الإجتماعية والتطبيق الفعلي والساري للقوانين التي يصوغها الشعب.

---

(١) عبد الإله بلقزيز، ثورات وخيبات في التغيير الذي لم يكتمل، منتدى المعارف، بيروت، ط١، ٢٠١٢، ص ٢٩٤.

(٢) مروان بشارة، العربي الخفي، ص ٢٠٠.

فنجاح الثورة يكمن أول شيء في الإطاحة بطغاة فاسدين ومستبدين وبالكثير من أركانها ورموزها وفتح الطريق أمام تدفق التاريخ في بلدان أقفل الطغاة أبوابها أمام تيارات التطور... ثم الانتقال من الضفة الشرعية الثورية إلى ضفاف الشرعية الديمقراطية والتي مازالت الثورة لم تبلغها، إذ أن قيان المشكلة التقليدية بين الإسلاميين والعلمانيين قد نصبت من جديد. والآن تثير إشكالية أسس الدستور والقيم وعلاقة الدولة بالدين في الحقيقة مؤشر غير مريح، ويهدد استفحاله بتوليد نزاعات قد تأكل رصيد الثورة برمته[١]، إذن على حسب عبد الإله بلقزيز لا يمكن أن نطلق على الثورة «الربيع»، مادامت لم تنته بعد، ومازال الشعب يتخبط بالأنفس المتبقة له في صراع الحركات الإسلامية والأحزاب السياسية العلمانية، وإن شهدنا بعض الحركات الإسلامية انها أبدت إعجابها بالديمقراطية ومبادئ المواطنية من مثل مادعى إليه الغنوشي رئيس حركة النهضة التونسية، إذ يعد من أبرز دعاة التحديث بين الجماعات الإسلامية، وذلك بدعوته للديمقراطية والتسامح بين أفراد الشعب ووجوب سيادة الشعب لوطنه...الخ. وإن كانت بمصر قد نحت اتجاه أخر الحركات الإسلامية، إذ ذهبت تلعب دورا قياديا في ثورات ٢٠١١ فتحركت جماعة الأخوان المسلمين لتؤسس أول حزب سياسي لها باسم: حزب الحرية والعدالة بقيادة محمد مرسي وصاروا جزءا مكملا من التنسيقات التي برزت في مناطق متفرقة من سوريا وفي نهاية الصيف انضموا إلى المجلس الوطني السوري وهو ائتلاف بين الإسلاميين والليبراليين واليساريين بقيادة برهان غليون[٢].

ويذهب برهان غليون على اعتبار الثورة، القفزة الأولى التي قفزتها شعوبنا نحو المستقبل، وذلك عندما قررت أن تصنع مصيرها بيدها وتطالب بمبادئ الاحترام والسيادة والتضامن والوحدة... إلخ، فمن دون هذه الثورة لما كنا سنشهد هذا التقدم - ولو كان بسيطا - وكنا سنظل ندور في تكرار التاريخ الماضوي وإعادة إنتاجه كما فعلنا في انتكاساتنا في نصف القرن الماضي وكنا سننتقل من ديكتاتورية إلى ديكتاتورية أخرى، لا حرية ولا قانون ولا تقدم من دون شعوب واعية لمصالحها ومتمسكة بمصيرها [٣].

---

(١) عبد الإله بلقزيز، ثورات وخيبات في التغيير الذي لم يكتمل، ص٢٣٤.

(٢) مروان بشارة، العربي الخفي، ص ١٩٢ ص١٩٣.

(٣) برهان غليون، http://www.inewsarabia.com/485/%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1-%D9%85%D8%B7%D9%88%D9%84-%D9%85%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%B1-%D8%A8%D8%B1%D9%87%D8%A7%D9%86-%D8%BA%D9%84%D9%8A%D9% 88%D9%86.htm

بالرغم من الخسائر المادية والمعنوية والبشرية، إلا أننا يجب أن نقبل بها من أجل مستقبل ديمقراطي زاهر وحافل، وبهذا الثورة هي خريف أكثر منها ربيع، ما دام الصراع يعصف بالمجتمع العربي ومازالت الصورايخ تهطل دون سابق إنذار.

٤. الفجوة العربية... فيما تكمن؟؟

الأكيد أن هناك فجوات فصلت بين أهداف الثورة ومساعي الثوار الذين تأملوا الكثير وخاصة بعد الإطاحة ببعض الأنظمة القمعية من مثل ليبيا ومصر حيث يرجع بعض المفكرين هذا الجانب السلبي في الثورة إلى عوامل مختلفة، «بعضها على صلة بضعف البنى التنظيمية للقوى الاجتماعية التي نهضت بعملية التغيير الثوري، وبما تعانيه من صور مختلفة من التشتت والتنوع في جماعات مدنية متباينة، مقابل قوة البناء التنظيمي للأحزاب التقليدية، وبعضها الثاني على صلة بالهندسة السياسية التي اختارتها القوى الحزبية للمرحلة الانتقالية وبمفهومها القاصر للمرحلة الانتقالية، ورغبة كثير منها في اختصارها زمنيا، أو في اختصارها أداتيا بالاحتكام إلى صناديق الاقتراع»[1].

برهان غليون لا يحدد الفجوات ولا أسباب الفشل للثورات العربية، ذلك لأنها مازالت تتخبط في صراعاتها، ومازال آلام المخاض لن تتوقف لولادة جديدة، حيث أن لم يُبْق برنامج التدمير الممنهج للوطن والشعب والدولة الذى طبقه نظام الأسد من سوريا المدنية التعددية ومشروعها شيئا، فالدولة تعيش اليوم محنة عظيمة، ومصيرها نفسه أصبح على كف عفريت، والإنقاذ من براثن القتل والتدمير والتطهير الطائفى والتهجير والتشريد المأساوى ينبغى أن يكون اليوم هو الهدف الأول والرئيسى. والحديث قياس بالنسبة للدول العربية الأخرى كتونس ومصر ولكن بشكل نسبي، إذ تعد الثورة السورية قد دفعت ثمن انتصارات الثورات العربية السابقة. فالأمل والجسر في نجاح أو فشل الثورة يتحدد بنتائجها النهائية.

ولكن ما الدور الذي قامت به المعارضة المتمثلة في المجلس الوطني بسوريا برئاسة مفكرنا برهان غليون؟؟ فهي وجدت أصلا لدفع الثورة إلى الأمام والعمل على إسقاط النظام القائم، نظام الأسد.

---

(١) عبد الإله بلقزيز، ثورات وخيبات في التغيير الذي لم يكتمل، ص٣١٦.

يجيب برهان غليون: أن هناك بالتأكيد معارضة سياسية في سورية مرتبطة اليوم اكثر فأكثر بالثورة، لكنها لا تشكل القوة المحركة فيها، ولا يمكن أن تشكل مثل هذه القوة. إنها بالأحرى تابعة للثورة، ولا يمكن إلا أن تكون كذلك، بما تمثله من ديناميكية تاريخية فاعلة مرتبطة بزخم كتلة شعبية متفجرة تحركها روح لا تخمد من إرادة التحرر والتضحية والفداء، وهي وحدها من يملك زمام المبادرة على الأرض. والفرق بين الثورة والمعارضة هو الفرق بين منطقين وديناميكيتين اجتماعيتين مختلفتين تماما. فلا تعمل المعارضة إلا بمنطق السياسة القائم هو نفسه على الحوار والتفاوض للوصول إلى تسويات أو حلول وسط ترضي جزئيا على الأقل الأطراف المتنازعة. ومن دون هذا الحوار والتفاوض ليس للمعارضة أي أمل في تحقيق شيء. ولذلك يرتبط نجاح المعارضة بالخبرة السياسية العملية وبمقدرة القادة السياسيين ومهاراتهم في فن الحوار والمفاوضة والمناورة السياسية والتكتيكية بشكل خاص، ولا يمكن لها أن تتقدم من دون خطط واضحة وبرامج مبلورة وأهداف معروفة للجميع. فالسياسة هي فن الوصول إلى أهداف ممكنة بوسائل قانونية وشرعية أي سلمية. وهذا يعني انها ممارسة واعية ومنظمة وعقلانية تتحقق ضمن نظام مستقر على مبادئ وقواعد واضحة ومعلومة[1]. يمكن فهم هذا التصريح بأن قوى الشعب وكذلك المعارضة مازالت عاجزة عن إحداث فعل حاسم للثورة، ربما يرجع ذلك لضعف البناء والقيادة للسياسة الداخلية للمعارضة، إضافة إلى غياب الدعم الدولي لها، مقارنة بنظام الأسد، الذي يلقى من الشحن المسلح والثوري ضد الشعب ما يجعله مسيطر ومحتكر على التحكم في الوضع. فلا المعارضة هي التي تؤدي بإسقاط النظام وإنما الشعب، وإن كان هذا التصريح لا يقدم للقارئ ولا للشعب الثوري شيء من حيث أن المعارضة يجب أن بقوى الدولة القائمة وتدفع بالشعب نحو المستقبل المأمول لا مجرد أداة لتعبئة الشعب ضد النظام المافيوزي، وفشلت كذلك في الانتقال بالثورة من حال إلى أخرى، فالثورة السورية تعد من الثورات الأكثر مدة في الصراع والأشد معاناة، والتي لم تر بعد النور، وهذا يرجع إلى خطأ الاعتقاد بمفهوم المرحلة الانتقالية، «إذ المرحلة الانتقالية تعني التوافق الوطني على قواعد البناء السياسي وإدارة السلطة، وليس وضع استثنائي تتعطل فيه المؤسسات التنفيذية والتمثيلية والدستورية ويلجأ فيه إلى قواعد إجرائية انتقالية مؤقتة قبل الشروع في إعادة بناء

(١) برهان غليون، الثورة السورية ورؤية للمرحلة الانتقالية بعد بشار الأسد، الشبكة العربية العالمية، اليوم: ١٥. أغسطس. ٢٠١٢، الساعة: ١٤:٤٦، http://www.globalarabnetwork.com/opinion/7952-2012-08-15-15-50-51.

تلك المؤسسات عن طريق الانتخابات»[1]. والمجلس الانتقالي الوطني يسعى أكثر إلى بناء حكومة جديدة بما تتوافق مع مطالب الشعب ومع منطق الحوار بين الدول الغربية الكبرى.

إذن الفجوات تكمن في كل من المعارضة وفي الشعب الثوري وفي نظام السلطوي، كلٌ ساهم بطرق مباشرة أو غير مباشرة بعدم النهوض من الانتكاسة التي أصابت الدول العربية منذ وقوعها.

خاتمة

مما تقدم ذكره أعلاه نستخلص الآتي:

١. تمحور مشروع برهان غليون على إصلاح الوضع العربي القديم والراهن، وخاصة المجال السياسي - الاجتماعي، إذ عُني بتقديم قراءات واقعية للأوضاع العربية المعاصرة، مخترقا بذلك التقاليد والعادات الفكرية القديمة والتراث الماضوي، ليقدم لنا قراءة محورية تدور حول ماهو معاش، فمشروعه ليس مثاليا أبدا، بل العكس أكثر واقعية مطبوعة بتفاؤل كبير، فالعاملان الأساسين الذي ركز عليهما برهان غليون تمثلا في الحداثة باعتبارها موضة العصر وعلى العربي أن يواكبه ضرورة، والدولة المدنية التي في ظلها نتمتع بكل قيم الحرية والكرامة والمساواة، فنحقق بذلك ديمقراطية أصيلة ذات منبت عربي، من حيث أنها سوف تستوعب التنوع الطائفي والعقلية العربية.

٢. ساعدت قراءات برهان غليون القديمة على تشخيص الواقع العربي، هذا الذي ساعد على بروز وجود أزمة حقيقية وعلينا أن نتحرك لإنقاذ ذواتنا، فالقارئ العربي لم ليغفل عن هذه القراءات التي اختصرت له الوضع العربي ككل في كتابات موحدة ومتناسقة، وجعلته يدرك مدى خطورة الوضع الذي هو في كنفه يعيش، ولطالما ألح برهان غليون على ضرورة الخروج من الوضع بأية طريقة، وحتى أن تنبأ بالأسوأ إذا ظل الشعب بهذه السذاجة والغفلة عن واقع سياسة الأنظمة واحتكاراتها غير متناهية للموارد الشعب المادية والمعنوية.

٣. بعد قيام الثورة لم يتخل برهان غليون عن دفاعه للشعب ودفعه نحو الأمام وإكمال

(١) عبد الإله بلقزيز، ثورات وخيبات في التغيير الذي لم يكتمل، ص ٣١٨.

ما بدأه، وقد تجسد هذا في ترشحه كرئيس للمجلس الوطني السوري، ليدعم الثورة السورية بكل ما يملك، إلا أنه فشل نظام المعارضة وأزيح منها لأسباب معينة، ولا يتمثل دعمه فقط لثورة بلده، فلقد كتب الكثير من المقالات حول الثورات العربية الأخرى كمصر وليبيا وتونس، فكان محللا بارعا وناقدا لاذعا للأنظمة التي كانت قائمة في هذه الدول، وقد عمل دائما على تحفيز الشعوب لإكمال الثورة حتى بلوغ هدفها التي قامت من أجلها وهي الحرية والتنمية الاقتصادية وقيام الدولة المدنية...الخ، وهي قد نجحت أولا في إسقاط النظام القديم في تونس ومصر وليبيا، وثانيا أنه خلق قانون جديد في طريقة التفكير وهو التمرد والمطالبة بالحقوق والتغيير إذا ما كان هناك وضع خطر في البلد الواحد، لقد أفتتن العربي بثورته وهو فخور بنفسه وبأعماله، وكسب ثقة كبيرة، هذا الذي سيكون له الأثر الفعال في السنوات القادمة، وفي مستقبل الوضع العربي.

فالمشروع الفكري يجب دائما أن يكون هادفا لإصلاح واستقامة ماهو مغالط فيه ومنافي للحقيقة، وإلا لما كان هناك معنى لوجود فكر في الدولة. فالمشاريع العربية كلها يجب أن تتوج بالبناء العقلي والمنطقي عند طرحها للنظريات التي تقصد بها تعديل الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي للفرد وللمؤسسات والأنظمة...الخ، حتى نلحق مواكبة الدول الغربية وننعم بالرفاهية والرخاء التي طالما حرمنا منها.

المصادر والمراجع

أ. المصادر

١- برهان غليون، بيان من أجل الديمقراطية، دار بوشان للنشر، الجزائر، ط٤، ١٩٩٠.

٢- برهان غليون، نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

ب. المراجع

١- السيد ولد أباه، أعلام الفكر العربي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٠.

٢- عبد الإله بلقزيز، ثورات وخيبات في التغيير الذي لم يكتمل، منتدى المعارف، بيروت، ط١، ٢٠١٢.

٣- مروان بشارة، العربي الخفي وعود الثورات العربية ومخاطرها، ترجمة: موسى الحالول، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الدوحة، بيروت، ط١، ٢٠١٣.

٤- مجموعة من المؤلفين، إلى أين يذهب العرب؟ مؤسسة الفكر العربي، العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٢.

البيبلوغرافيا الإلكترونية

١- برهان غليون، كلنا سوريا، http://www.inewsarabia.com/485/%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1-%D9%85%D8%B7%D9%88%D9%84-%D9%85%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%B1%D8%A8%D8%B1%D9%87%D8%A7%D9%86-%D8%BA%D9%84%D9%8A%D9% 88%D9% 86.htm

٢- برهان غليون، القضايا العربية، الحوار المتمدن، العدد ٨٦٦،

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=%2019447

٣- برهان غليون، المواطنة: العربي الجديد، الحوار المتمدن، العدد ٣٣٠٢،

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=250057

٤- برهان غليون، الثورة التونسية أو دخول العرب في الحداثة السياسية، مجلة الحوار المتمدن، العدد ٣٢٥٥، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=242874

٥- برهان غليون، أسطورة الحداثة العربية، الحوار المتمدن، العدد ١٥٩٤،

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=68375